مقدمة عن الإسلام .. وجدل التطور الحضارى العربى !

ثمة إنقسام عميق الغور فى الإستجابة لتحدى الواقع العالمى سواء الدولى/ الهيمنة الأمريكية، أو الإقليمى/ العدوانية الإسرائيلية، وذلك بين إدراكات ثلاث متمايزة تتنازع الوعى العربى المعاصر؛

فثمة إدراك يضع هذا التحدى فى مرتبة تقارب القدر الذى لا مفر من الإستسلام له حيث تطغى على لغة الخطاب العربى العام مصطلحات ومفاهيم تزخر باليأس والعدمية تبرر القعود التام عن مواجهة تلك الهيمنة والبقاء فى أسر المألوف من السياسات مع توشيتها بمفردات الشجب والإدانة ذرا للرماد فى العيون. تلك المفردات التى طالما سخر منها الوعى القومى، فاذا به يبحث عنها ويتوق إليها مع هبوب عاصفة الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان "٢٠٠٦" فلم يسمعها إلا فى صوت ضعيف ذابل إنبعث مع أنين الضحايا القادم من تحت ركام الحطام فى قانا الذبيحة ثانية، والتى أخذت ترمى الزمن العربى بكل أنواع الحجارة.

وفى المقابل ثمة إدراك نقيض لا يرى طريقة لمواجهة هذا الواقع إلا من خلال الحرب. وهو لا يتوقف عن الدعوة الى الحشد لها بسرعة وليس على مهل، بل وإعلانها أحيانا من على الشاشات الفضائية العربية اللامعة، ويذهب هذا النمط فى أشد فصائله جموحا الى ممارسة الإرهاب كنوع من الإعلان الفردى أو الفتوى عن تلك الحرب المقدسة التى لا تستطيع الأمة ان تعلنها ضد الأعداء الظالمين من اليهود والصليبيين. وينسى هؤلاء كل مقومات الجهاد التاريخى والحضارى والمعرفى، بل والأخلاقى حيث جهاد النفس، ولايتذكرون سوى جهاد السيف الذى يستحيل إرهابا.

ويتوسط النمطين إدراك ثالث متوتر لجمهور عربى يغلى حنقا وهو يراقب الخانعين بلا كبرياء، والمندفعين بغير حكمة، والمذبوحين بلا ضمير، فإذا ما ازداد حنقه ووصل الى درجة الغليان فار الى الشوارع متباينة الإتساع والضيق فى المدن العربية، والتى تبقى حركة السير فيها رهينة إتجاه واحد، فإذا به حشد هائل يسكب صرخاته الملتاعة، وعواطفه الساخنة فى شحنات غاضبة قبل أن

يعود منهك القوى من حيث أتى، إذا أتيحت له الفرصة أن يعود دون عقاب من قبل حراس الأوطان العربية من الأشاوس والميامين الساهرين على مستقبل الإنسان العربى من المحيط الى الخليج!. غير ان هذا الإنسان لا يعود بعد خروجه الى ما كان عليه قبل الخروج، بل مكتئبا محبطا مكبلا بالعجز حتى عن إصلاح ماسورة مجارى فى شارعه تطفح بالروائح الكريهة، وليس إصلاح النظام العالمى الذى ينضح بالمظالم القبيحة.

وعلى المرء أن يتساءل: لماذا هذا الإنقسام فى عناصر المشهد العربى الممتد؟ لماذا هناك مستسلمون، واستشهاديون، ومكتئبون؟ ولماذا هناك دعاة حرب عبثية، ومبررو اخنوع غير محدود، وصامتون؟ كما عليه أن يتساءل: أين هم المجاهدون فى التاريخ بشروطه وحسب منطقه، وماهى البوتقة التى يمكنها أن تصهر هؤلاء فى كيان واحد يصير عند مواجهة التحديات وكأنه قلب رجل واحد؟ حتى يصل الى السؤال الكبير/الأصلى: أين الكتلة التاريخية العربية المنسجمة، برغم تنوع، والفاعلة رغم تعقل، بل عبر تعقل، والتى يمكنها الإمساك باللحظة وقيادة الأمة فى مواجهة تحدياتها بسلاسة وحكمة ولكن فى ثقة وتوثب ؟.

ما الذى يعوق هذه الكتلة عن أن تنشأ وأن تعمل؟. هل لأن العالم العربى الممتد بين محيط وخليج يزخر بمواقف سياسية شتى تراوح بين اليمين، واليسار؟ أليست الأمم جميعا تشهد مثل تلك الخلافات فى المواقف وتتمكن من إدارتها بل والإفادة منها فى دعم حيويتها، ووزيادة قدراتها على تحدى ظروف متباينة ؟. هل يجب على الأمم ان تفكر بعقل واحد، وتبصر فى اتجاه واحد حتى تتمكن من السير فى طريق واحد أوتنجح فى مواجهة تحدى مشترك ؟.

أسئلة كثيرة صعبة ومربكة تثيرها حالة التشرزم فى الإدراك العربى الراهن للذات والعالم لا يمكن تفسيرها بمجرد وجود إختلاف بين مواقف سياسية تستطيع أن تديرها وأن تبنى توافقات عامة حولها، وإنما بوجود انقسام عميق فى الرؤية الثقافية على المستوى الوجودى، والتاريخى، ومن ثم الواقعى، تسهم فى صياغته بالأساس "تصورات مختلفة" عن الإسلام بين ثلاثة أنماط من الوعى تكاد – لفرط تباينها – تصل الى حدود "التناقض" حيث يستقطب كل منها قطاعا متكاملا يمتد من النخب الى الجماهير العربية، مرتكزا أحيانا على

قاعدة إنتاج أو تمويل خاصة، وغالبا على وسائط تعليم وتثقيف متميزة، ومؤكدا على منابع إلهام وتوجيه مغايرة ؛

النمط الأول لهذا الوعى يتجذر فى الصياغة الرائقة لـ "**إسلام القرآن/ التوحيدى**" سواء فى النص الإسلامى نفسه، أو فى التجربة التاريخية العربية فى القرون الأولى وبخاصة العصر الراشد، وهو النمط الذى يمكن تسميته بـ "الإسلام العقلانى" الذى إستمر وجوده فى الثقافة العربية من مرحلة التدوين الى الحقبة المعاصرة، ولكنه كان يزداد نحافة بمرور الزمن إذ دفعته ملابسات التاريخ السياسى العربى دوما وتدريجيا الى موقع الهامش، و يجسده الآن على الصعيد النظرى "**التيار التوفيقى/ النقدى**" فى الفكر العربى المعاصر.

ذلك النمط العقلانى من الوعى بالإسلام هو الذى أسس للنهضة العربية الأولى وللثقافة العربية المتسامحة، ومنح الحضارة العربية مذاقها فى العصر الوسيط، وضمن للإسلام نفسه نقاءه وبقاءه، وانتشاره، بل وانبثاقه الرائع من قلب حياه جاهلية حيث لا معرفة تذكر، ومن نفق الشرك حيث الأصنام تعبد، ومن مجتمع فظ يئد الأنثى لأنها إمرأة الغد، ولا يعترف أصلا بإنسانية العبيد، حيث جاء محمد بن عبد الله بدعوة تقف على النقيض من كل ذلك، جوهرها التوحيد لأن الله هو الواحد الأحد، والعلم لأن صفته العليم الحكيم، والمساواة بين الناس لأنه ربهم أجمعين، فقد كان الإسلام ثورة شاملة على المجتمع والعقل الجاهليين معا.

وبهذه الثورة تمكن الرسول الكريم من بناء جماعة إنسانية "إستثنائية" تكاد تعلو على التاريخ وهى منه، وتشبه الأسطورة وهى الواقع الحى، إذ لم يبلغ "محمد" عن ربه القرآن وكفى، بل تمكن به من صنع الإنسان الجديد "إنسان القرآن" حتى كان المدينى يتنازل لأخيه المكى عن أحد بيوته لو إمتلك اثنين، والأنصارى عن إحدى زوجاته للمهاجر الذى ترك ماله وأهله نصرة للدين الجديد بفعل روحانية متسامية تتجاوز كل ما أنتجته الفلسفات من أفكار، وأنظمة الفكر السابقة من مثاليات. بل تكاد تسمو على القدرة الإنسانية نفسها لو لم يقم هذا الدين الحنيف بإعادة صوغها هاديا لها أمضى عزيمة بشرية، تلك التى مكنت العربى البدوى من مقاربة الحضارة الإنسانية بعد جيل واحد، وإمتلاك زمامها بعد ثلاثة أجيال إذ كرست لديه حب التضحية لدرجة الفداء، وأسرت له

بالمعنى العميق للجهاد الذى يبدأ بجهاد النفس ولا ينتهى إلا بهزيمة طواغيت الشر وتحرير إرادة الإعتقاد لدى المقهورين.

وبرغم أن بناء حضارة وارفة كهذه، فى فترة وجيزة كتلك أشبه بالمعجزة، فان الإسلام حقق إنجازه من داخل أحكام العقل وحسب سنن التاريخ الكبرى وفى إطار تصوره العقلانى الرائق لتجلى الألوهية ومعنى النبوة؛

فالألوهية فى الإسلام ذات حضور متسام يتفق والنضج الحادث للعقل البشرى فى التاريخ، وذلك ضد النزعة الى أنسنة الإله التى سادت بعض العقائد، أو تأليه الإنسان التى استبطنت عقائد أخرى سابقة. فالله فى الاسلام هو الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء والمنزه عن كل بشرية أو نسبية أو نقص، وهى الصورة التى يلح القرآن الكريم فى إبرازها مؤكداً على أن اللبس فيها بمثابة شرك بالله الذى يغفر برحمته كل ذنوب البشر، مهما كانت ثقيلة، إلا أن يشرك به. وعلى هذا النحو يكرس الإسلام فصلا مطلقا بين السماء والأرض، أو بين عالمى الشهادة والغيب، فالله وحده هو سيد الملكوت من الأزل الى الأبد، أما سواه من الخلائق فيسرى عليهم قانون الوجود والعدم: خلق فحياة، ثم موت فبعث للحساب ثم خلود فى الجنة أو النار، وإن تراوحت التفاصيل داخل هذا القانون الوجودى سواء فى شكل الخلق أو ملابسات الحياة حيث طول العمر أوقصره، وسعة الرزق أو ضيقه.

أما نبوة محمد "ص" فقد بقيت هى الأخرى من دون أساطير تحيط بها فهو "ص" خالص فى إنسانيته لا يعلو على الناس فى شىء قبل بعثته إلا بصدقه وأمانته، ولا بعدها إلا بكونه رسول الله اليهم. وإن تميز عن الناس فليس لدافع وجودى يتعلق بكينونته، وإنما لدافع أخلاقى يتعلق بتمام إيمانه، ليس لأنه قد بلغ الكمال الذى لايبلغه إلا الله، وإنما لأن معصوم من الخطأ كونه نموذجا أُعطاه الله للبشر ليلهمهم قبل أن يدعوهم، ولكنه ليس مقدساً بل بشرا خالصاً يحيا مع الناس حياتهم، حيث ولد من أب وأم مثلهم، ثم يموت فلا يبعث فى الدنيا ولا ينتظر وجوده مرة أخرى إلا معهم حينما يبعث كل البشر لملاقاة الحساب عقابا أو ثوابا تحقيقاً للمعنى الإلهى للوجود.

هذا الإدراك العقلى هو ما جعل الإسلام المصدر الأساسى لإلهام الحضارة العربية وسرها الكبير، فمرحلة الصعود الكبير والممتد لنحو أربعة قرون

مرتبطة بنمو الإسلام إرتباطا كاملا وشاملا، قبل أن تأخذ فى الركود، ثم فى التراجع مع تباعدها الزمنى عن لحظة إنبثاقه. وذلك على العكس تماما من جدلية التطور فى السياق الغربى حيث نمت الحضارة مع التباعد التاريخى عن مصدر إلهامها الدينى، فالمرحلة الحضارية التالية على زمن قسطنطين وإستقرار المسيحية مثلت أفولا للحقبة الكلاسيكية. وبعد سقوط روما أمام وطأة الهجمات الجرمانية، كانت العصور الوسطى الباكرة أقرب الى الإنهيار، حتى أن الدولة البيزنطية المتفاعلة مع الحضارة العربية، والمستبطنة لتراث الفكر الهيلينستى ظلت حاضرة المسيحية قياسا الى الغرب الأوروبى المجزأ والبدائى رغم هزيمتها الكبرى أمام الأتراك السلاجقة فى موقعة "مانزاكرت" ١٠٧١م حتى ورَّطه حقده عليها فى الحملة الصليبية الرابعة ضدها. وهنا تتبدى لنا علاقة إيجابية فى السياق العربى/ الإسلامى، وأخرى سلبية فى السياق الغربى/ المسيحى، بين الدين والحضارة.

والنمط الثاني للوعى بالإسلام هو "**الإسلام السلفى/ السلطوى**" أو ما يمكن تسميته بـ "**الإسلام التقليدى**" الذى نما مع توالى الأيام، وتغيرات العصور وذبول الروحانية المتوهجة بفعل الطبيعة البشرية وما فيها من سوءات، أو لها من هنات أخذت بزمام العرب المسلمين لتذكى بينهم الفتن، وتقتل لديهم الهمة، وتثير لديهم الشهوات فيركنون الى الدعة بعد الجهاد، والسفة بعد الزهد، والظلم بعد العدل، وإذا بإسلام القرآن يذبل أمام "إسلام السلطان" الذى أفرزته لتعيش به ومن خلاله الثقافة السياسية العربية منذ عشرة قرون على الأقل فلم يعد هناك طريق لمراجعة السلطات وكانت الهزائم والإنتكاسات والتمزقات موجات بعد موجات.

وهنا تبدأ علاقة نقيضة بين التاريخ والحضارة لتلك التى كانت بين الدين والحضارة، حيث دخلت الحضارة العربية مرحلة الركود مع بداية القرن الحادى عشر، وعندما بدأت الحروب الصليبية فى نهايته، كان ثمة نوعا من التكافؤ الحضارى بين عالم الإسلام وعالم المسيحية، أوبين العرب وأوربا، إستمر لنحو القرنين قبل أن يبدأ المنحنى الحضارى رحلته الإنقلابية، ضد الحضارة العربية، ونحو النهضة الأوروبية، وأخذ ما يمكن تسميته بـ "قانون التزامن التاريخى – الحضارى" فى ممارسة نفوذه الإيجابى فى السياق الغربى

لخمس قرون شهدت تدريجيا عملية إستبدال فى مصادر الإلهام الغربى من الدين المسيحى التقليدى "الكاثوليكى/ الأرثوذوكسى فى الأغلب" الى العلم التجريبى المكرس للعقلانية الحديثة الموصولة بالتقاليد الكلاسيكية للفلسفة اليونانية، والمستلهمة للنزعة البروتستانتية، والمتمددة عبر الكشوف الجغرافية، وهى العملية التاريخية المركبة التى أنتجت النظام العالمى الواسع للحداثة. وفى المقابل مارس نفوذه السلبى فى السياق العربى، حيث شهدت الحضارة العربية تراجعات تاريخية مهمة بعد لحظتى إنبثاقها، وإيناعها بقوة الروحانية الإسلامية المتوهجة ؛

أولى مراحل التراجع هذه يمكن وصفها بـ "**الركود الحضارى**" الممتدة بين القرنين الخامس والسادس الهجريين والتى شهدت تنازع تيارين متناقضين على الثقافة العربية **أولهما** التيار العقلانى النقدى والإنسانى المنفتح الذى مثل إمتدادا طبيعيا لمرحلة الإزدهار فى عصرى التدوين، والترجمة مستلهما لمقوماتهما الفكرية والنفسية الإيجابية. **وثانيهما** التيار السلفى المتعصب والمنغلق الذى تنامى فى مواجهة النزعات العقلية الفلسفية والكلامية تجاوبا مع هواجس متنامية إزاء إختلاطها بالعقيدة الصافية، وظنا بأنها تقلل من نقائها. وكذلك مع الميول السياسية الأكثر رجعية التى تبدت إرهاصاتها منذ عصر المعتصم العباسى وتنامت بمرور الزمن، حيث ساد فقة رجعى متحالف مع نخبة الحكم القبلية ثم مع السلطة الرعوية المنتمية الى غير جذور عربية والتى فرطت فى العدل الذى هو أساس الملك وعاشت على الجباية، وقمعت الإجتهاد فذبل نور العلم ثم ذوى مشعل الحضارة، بعد أن وأدت الشورى على أيدى الفقهاء الذين بـرروا "السلطان الغشوم" بالخوف من "الفتنة التى قد تدوم" حتى جعلوا ستون عاما طوالاً من سلطان جائر أهون على الأمة من "ليله بلا سلطان".

وثانية تلك المراحل يمكن تسميتها بـ "**الأفول الحضارى**" وتبدأ على وجه التقريب منذ القرن السادس الهجرى، الثالث عشر الميلادى كنتيجة لهزيمة التيار العقلانى المتفتح أمام التيار التقليدى الإتباعى المتعصب الذى أخذ برقاب الثقافة العربية وتحكم كلية فيها، ليس فقط فى قلب الدولة العربية "العباسية" كما كان فى المرحلة السابقة، وإنما فى أطرافها أيضا وخاصة بعد رحيل ابن رشد آخر الفلاسفة العرب الكبار وإحراق كتبه وهجرة ما بقى منها الى أوربا اللاتينية،

وحيث صار "العلم" فى الثقافة العربية لفظة لا تنصرف إلا الى معنى واحد هو العلم الموروث عن النبى "ص" أما عدا ذلك فهو إما خارج عن مجال العلم إطلاقا، وإما هو معرفة لا تنفع ولا تستحق التحصيل، بل ان مثل هذه المعرفة الدخيلة التى لا تنفع قلما يقف أمرها عند هذا الحد السلبى إذ يغلب أن تجاوزه الى ضرر فعلى لأنها كثيرا ما تميل بحاملها الى الإستخفاف بالدين ودراسته.

وبينما مهدت مرحلة الركود الحضارى للهزيمة العربية أمام الهجمة التترية، فإن مرحلة التراجع الحضارى ترسخت بهذه الهزيمة نفسها وما كرسته من اقتصاد الغزو وحكم العسكر. فرغم قصر زمن هذه الحرب نسبياً "١٢١٩ - ١٢٥٨" كانت أثارها كارثية سواء على المستوى العلمى حيث أدت لتدمير كل دور العلم والمكتبات فى المراكز الحضارية التى كانت قد انتشرت فى العصر العباسى فى القاهرة وسمرقند، ودمشق وقرطبة فضلاً عن بغداد التى دمرت فيها دور العلم كاملة. أو على المستوى السياسى حيث مثل التتار نموذجاً رائقا، ويكاد يكون معيارياً، "للسلطة الرعوية"، فهم بدو رحل بالأساس يتميزون بالقوة والهمجية فى آن واحد ولا يملكون ثقافة تذكر، كما أنهم يفتقدون إلى البناء الاقتصادى الذى يكفل إعاشتهم وتمدينهم واستقرارهم، ولذا فالهجمة التى قاموا بها على العالم العربى الإسلامى آنذاك ليست سوى ممارسة لنشاط اقتصادى قديم عانت منه مصر الفرعونية تحت ضغط الهكسوس والليبيين، وبابل فيما بين النهرين من الأشوريين، وهو ما يسمى "باقتصاد الغزو" حيث تكون القوة العسكرية واستخداماتها فى السلب والنهب هى النشاط الوحيد والوسيلة المثلى لكسب العيش. ولقد استمرت صورة هذا النموذج الرعوى للسلطة السياسية على نحو ما فى العصرين المملوكى ثم العثمانى دون ممانعة عربية فى البلاد التى خضعت لسلطانهما، وفيما يبدو أن المجتمع العربى كان قد تعود عليه فلم يسعى الى مقاومته بل دخل معه الى عصر طويل من الضعف والتخلف استمر حتى بدايات النهضة العربية الثانية فى مطالع القرن التاسع عشر.

أما ثالثة تلك المراحل فيمكن تسميتها بـ "النهضة المجهضة" الممتدة منذ القرنين وتتمثل أهم ملامحها فى الوعى بحقيقة "التخلف الحضارى العربى" قياسا الى الآخر الغربى، وذلك على العكس من المرحلتين الأولتين حيث ساد وعى التفوق عليه ومن ثم عدم الإحتياج اليه فى المرحلة الأولى، والتكافؤ معه

ومن ثم القدرة على إهماله فى الثانية. وكان المطلب الضرورى المترتب على الوعى بالتخلف يتمثل فى تحدى النهوض عبر كيفيات مختلفة تمت صياغتها جميعا على أساس موقف معين من الغرب المتقدم، والطريق الذى نسلكه حياله: قبولا به، أو قطيعة معه، أو توافقا مع ذلك الإنتقال الذى أحدثه فى رؤية الوجود نحو الحداثة على كل مستوياتها. وقد زاد من وطأة التحدى أن اكتشافنا للغرب الحديث جاء فى سياق صدامى مثلته الموجات الهجومية المتلاحقة سواء الأوربية الإستعمارية، أو الصهيونية الإستيطانية، وحتى موجة الهيمنة الإمبراطورية التى تمارسها الولايات المتحدة وريثة المركزية الأوربية. وقد أدت وطأة التحدى الى تعقيد عملية النهوض الحضارى، والى ذبول الصيغ التوافقية مع الغرب، وفشل النخب العربية بعد حقبة التحرر القومى فى بناء الدولة الوطنية الحديثة، ومن ثم انبعاث صيغ ثقافية جذرية ترفض الواقع كما ترفض الغرب، وإذ تسعى الى تغيير الواقع، فهى تسعى الى نفى الغرب خارج الذات والوعى كلية.

أما النمط الثالث للوعى بالإسلام: فهو "**إسلام الخوارج/ الإحتجاجى**" الذى ينبثق من تلك الحالة/ النهضة المجهضة نفسها، وإن كان متجذرا فى الصيغ الإحتجاجية التى طالما أفرزتها تناقضات السياسة، وصراعات السلطة فى التاريخ العربى منذ كان الصراع الأول بين على رضى الله عنه، وبين معاوية على الخلافة، وغذته تحولات الثقافة ومساجلات الفقهاء حول جوهر السياسة فى الإسلام، وذلك فى تواز مع توترات الحركات الشعوبية ومطامحها فى الداخل، ومع ضغوط القوى المناوئة البيزنطية ثم الصليبية ومطامعها من الخارج. فقد إمتدت وتشعبت ظاهرة الخوارج فى التاريخ العربى وأفرزت العديد من الأشكال والتنظيمات الإحتجاجية كالإباضية والحشاشين والتيارات الباطنية العديدة وصولا الى البهائية على أرضية ثقافية سادتها نزعات سلفية غالبا، وصوفية أحيانا، ولا عقلانية دائما.

فإزاء ضمور التيار العقلانى، ورسوف المجتمعات العربية فى وهدة التخلف، والشعور العام بالهزيمة أمام الغرب والإحباط من الزمن، وتعبيرا عن الرفض أو الرغبة فى الخروج على النموذج السائد للإسلام التقليدى الذى قادنا الى المأزق الراهن، ينبثق ما يمكن تسميته بـ "الإسلام الإنقلابى" فى إطار البحث

عن حلول مغايرة لتلك التى تبنتها نخب الحكم القائمة بغض النظر عن الإمكانية النظرية والواقعية لهذه الحلول.

غير أن هناك اختلافات كبيرة وأحيانا حاسمة بين الجماعات العديدة التى تحمل لواء الإسلام وتسعى الى الخروج على الواقع. **فثمة** حركات ترفع لواء السياسة وتنزع الى التغيير الإجتماعى عبر المشاركة فى السلطة ما يجعلها تبدى احتراما للشرعية السياسية القائمة، بل وتبدى ميولاً ديمقراطية ومزاج سياسى معتدل يقربها من التيار العقلانى فى الفكر العربى الذى يرفض الواقع هو الآخر ويسعى الى تحديثه.

وثمة جماعات تمارس عنفا واعيا دفاعا عن المشروع العربى الاسلامى فى مواجهة الإحتلال الإسرائيلى فى وقت تعجز فيه النظم العربية جميعا عن التأثير فى مجريات الصراع على منوال حزب الله بقيادة رجل الدولة الشيخ حسن نصر الله فى لبنان وكذلك حركتى حماس والجهاد الإسلاميتين فى فلسطين، ما يبقى لهذه الحركات ومثيلاتها، مكانا داخل التاريخ العربى.

وثمة فى المقابل منظمات التطرف التى ترفض الواقع، ولا تحترم الشرعية، وتسعى الى الإنقلاب عليها بطريق غير سلمى دائما، وغير عقلانى غالبا، وعدمى أحيانا، فتلتمس فى العنف والإرهاب، طريقا يوصلها الى ما تعتقده حاكمية الله على الأرض. وهى لا تتورع أبدا عن إبداء كراهيتها للغرب الذى تعتبره شيطانا مريدا أغوى الحكام والناس بحضارته الشريرة فساروا خلفه حتى فقدوا أصالتهم التى صنعت حضارتهم الأولى !. وهو لا يكتفى فى أغلب الأحوال بإعلان الكراهية، بل يرفع دعوى الصدام معه، ولكن مع إختلاف فى المناسبة والتوقيت، فمنها من يؤجل الصدام حتى يتم النصر على شياطين الداخل وإصلاح المجتمعات العربية نفسها ثم قيادتها الى المواجهة الكبرى كما ساد الفكر الإنقلابى حتى التسعينيات. ومنها كذلك من غير مواقفه إزاء صعوبة تحقيق النصر فى الداخل، فاتجه الى الخارج مباشرة ليشتبك مع الكافرين من اليهود والصليبيين كما ذهب أسامة بن لادن على رأس القاعدة منتصف التسعينيات وتبعه الظواهرى على رأس الجماعة الإسلامية فى مصر عام ١٩٩٨، ثم منظمات عده فى بلدان عربية وإسلامية نحت الى الرؤية نفسها فى العقد الأخير.

وهكذا تشكلت "الجبهة العالمية الإسلامية لقتال اليهود والصليبيين" في إطار فضاء أممي وفكر إنقلابي على طول خط المواجهة مع العالم الخارجي مدفوعة بوهم الدفاع عن قضايا الأمة الملتهبة ضد النظام العالمي الذي يبدو جائرا ومفتقدا للعدالة، بديلا عن نظم الحكم التي تبدو عاجزة عن دفع الخطر ودرء المظالم ولا تستطيع سوى أن تتشبث بالسلطة يساندها في ذلك أئمتها من المنافقين، وبديلا كذلك عن العقلانيين الذي أغرتهم مباهج الغرب المزيف حتى أوقعتهم في شرك النفاق والزيف.

وهنا نلاحظ أن الصراع الذي دار في أغلب عقود القرن العشرين داخل الفكر العربي بين التيارات الثلاث الأساسية "السلفي، والعلموي، والتوفيقي" يتحول الآن في إتجاه رجعي قياسا الى الثلث الأوسط من القرن المنصرم، حينما كان التيار التوفيقي بين الأصالة والمعاصرة على حد الصياغة الأثيرة لزكي نجيب محمود، يحتل الموقع الوسطي بين التيار العلموي من جانب، والسلفي من جانب آخر. فمنذ هزيمة ١٩٦٧، وبداية إنكسار المرجعية القومية للثقافة العربية. كان ثمة تحول عميق يجري في الثقافة العربية نحو إتجاهات ثلاث أساسية:

أولا : في إتجاه نفي التيار العلموي الذي كان يرى في الغرب نموذجا مثاليا تاما ومن ثم يسعى الى التماهي الكامل معه، ويقبل به ملهماً لممارساتنا الكلية، بل يضعه كمرجعية ينزع إلى تقويم واقعنا بمعاييرها وقيمها حتى لو بدت تعسفية في بعض الأحيان. وصحيح أن نفرا محدودا لايزال يعتقد في تلك الرؤية وخاصة على المستوى السياسي، فيجعل المعايير الغربية "وخاصة الديمقراطية وحقوق الإنسان" مرجعية لسلوكنا السياسي، بل ويعطيه حق الرقابة علينا في تطبيقها، ولكن الصحيح كذلك أن أولئك قلة بما لا يشكل تيارا، كما أنهم أقرب الى حركيين مرتبطين بفضاءات فكرية، ومراكز بحثية غربية تجذبهم فلا ينغرسون عميقا في الثقافة القومية ولا يجسدون حقيقتها. وفضلا عن ذلك، وربما كان الأهم، أنهم لا يملكون نظرية ثقافية واضحة أو صياغة فكرية متكاملة كما كان الأمر لدى التيار العلموي أوائل القرن العشرين وحتى منتصفه.

ثانيا: نحو تبلور كامل لتيار أساسي جديد وهو "الإنقلابي" الذي يقع على يمين التيار السلفي، ويمتلك أجندة سياسية يمارس العنف لأجل تحقيقها سواء بدأ

من الداخل أو من الخارج، على نحو ما تقدم، ولعل تنظيم القاعدة يعد التجسيد الأبرز لهذا النمط الإنقلابى بل "العدمى" الذى هو أعنف صور النزعة الإنقلابية.

وثالثا: نحو تمركز التيار السلفى بكل تعبيراته الفكرية، وتجسداته الدعوية والتعليمية والتثقيفية بل والسياسية على نحو ما أسلفنا، فى قلب الثقافة العربية ليصبح هو الأقرب الى موقع الوسط الفكرى، والأكثر تعبيرا عن الإتجاه العام للمجتمعات العربية صانعا لصورتها الذهنية. وهو بذلك يزيح التيار التوفيقى عن موقعه الذى كان قد إحتله لنصف القرن على الأقل.

والمعضلة الكبرى هى أن نخب الحكم فى المجتمعات العربية أو أغلبها قد توافقت مع هذا التحول بنقل مواقعها، فى هذا الإتجاه نفسه وبالمسافة نفسها، سواء تلبية لحاجات داخلية لديها، أو نفاقا للمجتمع من حولها وهى تشاهد صعود التيار السلفى الى موقع الهيمنة. ولذا فقد تخلت فى الأغلب عن مشروعها التحديثى/التوفيقى الذى مارسته أو حتى إدعته لنفسها فى أغلب فترات القرن العشرين. وبدلا من دولة وطنية عربية تحديثية ولكن مأزومة، تسعى الى الحداثة وأن لم تبلغها، نجد الآن دول وطنية عربية تتراجع عن أهدافها التحديثية، خطوات، تختلف حسب الظروف والبيئات، أمام التيار السلفى المتصاعد.

وفى هذا الإطار نجد أنفسنا أمام صيغة جديدة ثلاثية أيضا للجدل الفكرى/ الإجتماعى / السياسى العربى، بديلة للصيغة الموروثة من القرن العشرين، فبدلا من ثلاثية الحداثى ــ التوفيقى ــ السلفى، نجدنا أمام ثلاثية التوفيقى ــ التقليدى ــ الإنقلابى. فيما يعنى أن الصيغة المقترحة لإقامة عقلانية عربية إسلامية، تلك المضمنة فى التيار التوفيقى الذى أسهمت فى صكه ونحته وتأصيله، جهود النخبة الفكرية، وخطابات النهضة العربية منذ القرن التاسع عشر، لم تعد فى قلب الفكر العربى المعاصر بل على هامشه، وهو ما يعنى ردة ثقافية عن مشروع التحديث العربى المأزوم أصلا بسلطويته.

ونحو إستعادة العقلانية العربية الإسلامية الى قلب المجتمعات /الثقافة، العربية سوف ندير هنا سجالاً بين تيارين أساسيين **أحدهما** التيار التوفيقى أو "الإسلام العقلانى" المأمول ولكن غير المتحقق فى الواقع فنعرض لمكوناته حسبما

نستشعره فى تجربة النهضة العربية الأولى، أو نتصوره ضروريا لإنجاز النهضة الثانية فى عالمنا المعاصر. أما **الثانى** فهو التيار الإنقلابى الذى يبدو متحققا فى الواقع الى درجة يكاد معها أن يختطفه من بين يدينا، ويذهب به الى الجحيم.

وحسب فهم الكاتب يشترك التيار الإنقلابى مع التيار السلفى فى مرتكزاته الثقافية على صعيدى الرؤية الوجودية، والتاريخية، ولكنه يصبح أكثر تطرفا وجذرية على صعيد الرؤيتين الواقعية/ السياسية ما يدفعه الى ممارسة العنف والإرهاب ويبرر وصفه بـ "الإنقلابى"، فالإنقلابية هنا هى أعلى مراحل السلفية.

ولا يتجاهل الكاتب وهو يدير الجدل حول هذه الثنائية حقيقة أن العقلانية العربية الإسلامية تواجه الضغط نفسه من مصدرين **أولهما** الإسلام الإنقلابى خصوصا فى نزعته العدمية التدميرية. **وثانيهما** الإسلام التقليدى الذى تجسده نخب الحكم القائمة التى وصلت بنا الى الركود بل والجمود وباتت لا تستهدف سوى مقاعد السلطة، كما يجسده فقهاء التقليد المكرسين لها. غير انه يبرر حصر الجدل على طرفى ثنائية العقلانى ـ الإنقلابى بأمرين:

الأول: هو قناعته بأن الإسلام الإنقلابى هو قرين الإسلام التقليدى على مستوى الحضور التاريخى. فالعنف الذى يملء الأرض بالدماء ويوقع الناس فى شرك المظالم مروعا الآمنين، ومستعديا المخالفين، لا يمثل نقيضا للركود والتخلف الذى أوصلنا الى عنق الزجاجة، إلا ظاهريا فقط، أما فى الجوهر فهما قرينان، أحدهما يؤدى الى الآخر، **فأولهما يقود** المجتمعات العربية الى الضعف، **وثانيهما** يجعلها فى مهب رياح الإستهداف إذ يؤلب عليها المجتمعات الأخرى كما حدث بعد أحداث ١١ سبتمبر، إما لأنه قد إرتكب الحدث الكارثى فعلا، وإما لأنه خلق النموذج القياسى أو الصورة الذهنية التى تربطه بالحدث، كما تربط الإسلام بالعنف كنتيجة للخبرات المتراكمة التى تشى بقدرة تيار نحيف وهامشى على إختطاف الثقافة العربية وإحتكار حق التعبير عنها.

والثانى: هو أن الإسلام التقليدى بكل مراوغته وتلفيقيته والذى وصل بالمجتمعات العربية الى وضع الأزمة الشاملة، قد تحول الى موضوع

للصراع وليس طرفا فيه، فهو افتقد بداية القدرة على قيادة مجتمعاته وتنميتها حتى وصلت الى عنق الزجاجة وتفجرت بالعنف ضد نفسها ثم ضد الآخرين. وهو الآن يفتقد للقدرة على حماية مجتمعاته من الآخرين الذى يعتدون عليها ويسفكون كرامتها قبل دمائها. كما يفتقد القدرة على تحدى الإنقلابيين الذين يفرضون حضورهم على حضوره فيطمسونه، اللهم سوى من محاولات يائسة ومتهافته للمواجهة الأمنية القاصرة قد تبطىء من الزحف ولكنها لا توقف المسيرة الإنقلابية، التى لا يمكن تحديها إلا من خلال صيغ فعالة وإيجابية وعقلانية فى الوقت نفسه. وهنا تبدو الحاجة الى إستيراتيجيات الإسلام العقلانى، فى مواجهة نزعات التيار الإنقلابى، حيث يدور الصراع بينهما بالأساس على أرضية أو ربما جثة الإسلام التقليدى المتراجع والمنسحب.

ويأتى هذا العمل بالغ التواضع، كدعوة الى إستعادة العقلانية العربية الإسلامية التى تحققنا فى العصر من دون أن تحرمنا أصالة التكوين، وذلك بإعادة بناء إسلام القرآن التوحيدى/العقلانى/الإيجابى/النقدى/التوفيقى الذى طمس حضوره منذ سادت عصور الضعف والتخلف. ليس بإحياء الخلافة الإسلامية، ولا بالبحث عن أمير للمؤمنين يتوفر له العدل والزهد، فهذه مفردات قوالب تاريخية تجاوزتها التجربة البشرية، ولكن بإنجاز المعادل الموضوعى/ المعاصر لهذه القوالب والمفاهيم، أى عبر الجهاد العلمى والتاريخى والحضارى بوسائل وأدبيات التنمية البشرية والتكتل القومى تأسيسا لكتلة تاريخية عربية حديثة عقلانية ومعتدلة وواسعة تستوعب كل الأطراف والتيارات. كما لا تتنافر مع غيرها من القوميات التى يزخر بها عالم الإسلام الواسع، بل تتجاذبها حتى تجذبها الى فضائها فى إطار كتلة إستيراتيجية تحيط بالقلب العربى، بدلا مما يذهب اليه التيار الإنقلابى من محاولة لتفكيك الكتلة القومية العربية، بل والدولة الوطنية الحديثة نفسها.

هذه السطور إذن هى مواجهة على الصعيد الثقافى بين التيار العقلانى، والتيار السلفى على صعيد الرؤيتين الوجودية والتاريخية، فى الطريق الى صياغة عقلانية عربية إسلامية. وهى مواجهة على صعيد الرؤية السياسية أو رؤية الواقع بين التيار العقلانى نفسه، وبين التيار الإنقلابى على طريق بناء كتلة

عربية إسلامية بدلا من تفكيك الدولة الوطنية العربية، أو تقسيم المرجعية الثقافية القومية.

ففى الفصل الأول "الإسلام الإنقلابى .. واستيراتيجياته التفكيكية" نستخلص المرتكزات الثقافية للإسلام الإنقلابى على مستوى الرؤى الوجودية، والتاريخية، والسياسية. ثم نتتبع فى عجالة نتائج الجدل بين هذه الرؤى النظرية، وبين الواقع السياسى على الصعيد الوطنى والقومى والعالمى. وهى نتائج تبدو تفكيكية على صعيد الدولة الوطنية، وإنشطارية على صعيد الكتلة القومية العربية، وصدامية على صعيد العلاقة مع الغرب.

وفى الفصل الثانى "الإسلام العقلانى .. وإستيراتيجياته التركيبية" نرسم ملامح الرؤية الثقافية للإسلام العقلانى على المستويات الوجودية، والتاريخية، والسياسية نفسها، متتبعين كذلك الممكنات الخلاقة لها فى تكتيل العالم الإسلامى حول القلب العربى، وإعادة صياغة العلاقة بين العالم العربى الإسلامى وبين الغرب فى إتجاه تعايشى.

ولا شك فى أن لهذا الهدف من الصعوبة بقدر ما له من السمو، إذ تصعب الإحاطة بمتطلباته على قدر تعدد جوانبه ومساراته، ولا يطمح هذا العمل فى جهده القاصر وحيزه المحدود الى أكثر من إلقاء الضوء عليه، ولأن هذه المهمة نفسها شاقة جدا، فلا يطمح القائم بها الى أكثر من الأجر الواحد، للمجتهد إذ يخطىء.

صلاح سالم